

## الفصل الأول

### نشأة الفلسفة المسيحية

يتسم الفكر الإنساني بطبيعته بالاستمرارية والاتصال، فهو ذا طبيعة متصلة، لا ينشأ من فراغ، ولا ينطلق من بدايات ونهايات فكرية منفصلة، بل تتأثر وتؤثر أجزاءه بعضها ببعض في سلسلة طويلة تمتد جذورها من الماضي إلى الحاضر مؤثراً على المستقبل، فالفكر لا يحدث بدون سوابق أو أصول، فهو متصل عبر التاريخ، ويظهر الديانات السماوية وخاصة الدين المسيحي وكذلك الدين الإسلامي نشأت اهتمامات فكرية كثيرة، أهمها وأولها موضوع أو مشكلة الصلة بين الفلسفة والدين، أو العقل والنقل، باعتبار أن ميدان الفلسفة هو العقل، وميدان الدين هو النقل أو الوحي المتمثل في الكتاب المقدس، فإن كل من الفلسفة والدين له ميدانه الخاص به، وكل ميدان له منهجه الخاص به، فإن المنهج المعرفي للدين هو الوحي أو النقل، والمنهج المعرفي للفلسفة هو العقل، على الرغم من أن كل طريق من الطريقتين يعالج نفس الموضوعات، فهناك اختلاف في المنهج ووحدة في الموضوع.

وإذا نظرنا في الموضوعات التي تدرسها الفلسفة نجد مبحث الوجود (الأنطولوجيا) كإثبات الوجود الإلهي والعلاقة بين الله والخلق، وتفسير الوجود، ومبحث المعرفة (الأبستمولوجيا)، ومبحث القيم (الإكسيولوجيا) الحق والخير والجمال، وذلك عن طريق المنهج العقلي، ونجد الدين يتطرق لنفس المباحث ويعالجها ولكن عن طريق الوحي أو النقل، فالدين ينبع عن القلب والوجدان، بينما الفلسفة تنبع عن العقل والتأمل.

إذن تختلف نقطة الانطلاق عند كل منهما، فالفيلسوف يبدأ من العقل وقوانين

الفكر الأساسية ولا يعترف بشيء دون أن يخضع للبرهان المنطقي، والعقل هنا يُعد أداة الفلسفة عبر تاريخها الطويل، أما الدين فإنه معبر بالوحي من الله تعالى، ولذا فإن النقل وليس العقل هو الأداة للمضى في طريق الإيمان وهذا الإيمان في ذاته ليس أمراً عقلياً بل هو أمر شعورى وجداني لا يلتقى مع العقل إلا عندما يحاول المفكرون أصحاب الدين التوفيق بين العقل والنقل أو بين الفلسفة والدين.

### (أ) التوفيق بين الفلسفة والدين

لاشك أن موضوعات الفلسفة تقترب أو تكاد تتطابق مع موضوعات الدين، ولهذا فإن عملية التوفيق بينهما ضرورية لأن كل من العقل والدين يفسر الوجود وعلل الموجودات والإنسان وأفعاله، فكان لا بد من محاولات التوفيق بين الحقائق المنزلة التي تقول بها الكنيسة عن طريق الوحي وبين النظر العقلي، على الرغم من سيطرة الكنيسة قروناً طويلة من الزمان ابتداء من منتصف القرن الثالث الميلادي إلى أواخر القرن الرابع عشر، حيث اعتبرت كل فكر يخرج عن تعاليمها خروجاً على الدين وتعاليم الكتاب المقدس، فشهدت مرحلة العصر الوسيط صراعاً بين الفلسفة والدين ومحاولة التوفيق بينهما<sup>(1)</sup>.

ولقد تصور مفكروا تلك العصور أن الإنسان بصفته حيواناً ناطقاً خلق على صورة الله، لكن هذا العقل البشرى قد فسد بفعل الخطيئة الأولى الأصلية وهي معصية آدم قبل نزوله من الجنة، وتبعاً لذلك فيجب على العقل التسليم بما يقول به الوحي في حالة حدوث تعارض بينه وبين ظاهر الوحي، فإذا حدث وأنكر العقل حقائق الوحي أو عارضها فهو بذلك يكون قد خرج عن الدين. فلا بد من التوفيق بين العقل والنقل، ولهذا جاء الفكر في العصور الوسطى فكر توفيقى.

ومن الجدير بالذكر أن الناس في ذلك العصر كانوا يحيطون الكلمة المكتوبة بهالة من التقديس والتبجيل، كما كانوا يؤمنون إيماناً تقليدياً بأن النصوص المقدسة كلها صحيحة بحروفها، سواء ما ورد في الأناجيل أم فيما كتبه الآباء كهان أو قساوسة

(1) للمزيد: د. توفيق الطويل: قصة النزاع بين الفلسفة والدين ص 21 وما بعدها - القاهرة 1947.

أو آباء الكنيسة وكذلك إلى غير الكتب الدينية التاريخية، مما نتج عنه فرض سلطان الكنيسة على كل جوانب الحياة وصبغها بالصبغة الدينية التي تقرها الكنيسة، فاندعت حرباً النظر في ظل سيطرة الدكتاتورية الكنسية، إذ أن البابا قد تصور نفسه خليفة الله على الأرض فتتمثلت بين يديه سلطة الأمر والنهي والثواب والعقاب الإلهي. وتحددت الدراسات فيما يتعلق بأمور الدين بما يخدم أهداف الكنيسة وأغراضها.

وقضية الصلة بين الفلسفة والدين، أو بين العقل والنقل، نشأت لما تحتويه المسيحية من أسرار وأفكار ميتافيزيقية، أي من أمور تفوق الطبيعة وكذلك التصور الإنساني، ولم تكن لتعلم إلا بالوحى، وذلك مثل فكرة الثالوث، وفكرة الخطيئة الأولى، والتجسد، وحلول اللاهوت في الناسوت وفكرة القداء، ولهذا انقسم الاتجاه الفكري بصدد الصلة بين الفلسفة والدين إلى اتجاهين، الأول: ينكر هذه الصلة، والثاني: يحاول جاهداً أن يوثق هذه الصلة ويثبتها.

والاتجاه الأول يرى أن هناك تغييراً واختلافاً بين الفلسفة والدين، فمن الممكن قبول قضية ما بالعقل وفي نفس الوقت الإيمان بنقيض تلك القضية، باعتبار أن الدين ليس في حاجة إلى الفلسفة لأن موضوع الدين المسيحي « فكرة الخلاص » التي لا صلة لها بالفلسفة، بل لعل الأرجح أن يكون اشتباك الفلسفة بالدين في هذه المسألة مما يضر بالدين وبالغاية التي ينشدها الإنسان من وراء الدين، وهذه الغاية هي الخلاص، إذن فليس هناك صلة ولا حاجة للدين إلى الفلسفة، ولهذا لا يمكن - في رأى هذا الاتجاه - أن نجعل الفلسفة تشتغل بالدين دون أن يكون في ذلك خطر على الفلسفة نفسها، إذ من المستحيل أن نجمع بين اللاعقلي والعقلي، ومعنى هذا أن للدين كما أن للفلسفة، ميدانه الخاص، وليس ثمة صلة بين الميدانين.

ومن أنصار هذا الاتجاه القديس برنار والقديس بطرس دمياني وهم من رجال الدين، وفي هذا المعنى يقول لودفيج فويرباخ: لا توجد فلسفة مسيحية لأن الفلسفة علم كالعالم، فمن غير المعقول أن نقول كيمياء مسيحية أو فيزياء مسيحية كذلك الفلسفة<sup>(2)</sup>.

(2) Copleston; F: A History of Western Philosophy. p.52 U.S.A 1963.

أما الاتجاه الثاني فيرى أن الفلسفة والمسيحية على اتصال وتفاعل، وأصحاب هذا الاتجاه يتفقون في أن الوحي والعقل من الله فلا تعارض بينهما، والعقل يجد في الوحي هادياً ومعيناً، ولكنهم يختلفون في تصور الصلة بين الفلسفة والدين أو بين العقل والوحي، وفي رأيهم أن الصورة التي ترسمها المسيحية للعالم هي نفس الصورة التي أودعها الله للعالم بالفعل، ولما كان العقل الإنساني قاصراً عن استكشاف تلك الصورة بنفسه، فقد وجب أن تكون مهمة هذا العقل أن يتخذ الصورة الإلهية للعالم على أنها الأصل الحقيقي للعالم، ثم العمل من ناحيته على تعقلها وتفهمها بقدر المستطاع، ومن ناحية أخرى رأوا وجوب التمييز بين ما يرجع للطبيعة وما يرجع لما وراء الطبيعة (المتافيزيقا)، وذلك كالأسرار التي تكشف عن حقيقة الأشياء الخاصة بالغيبيات التي لا يمكن لأي مخلوق أن يستكشفها بعقله، وأيضاً اتحاد النفس بالله بواسطة النعمة الإلهية، ومعاينة النفس لله في الحياة الآجلة، والمعجزات، وقضية التثليث أو الأقانيم، فهذه الأمور جميعها صادرة عن محض وجود الله وتديره الحر.

إذن فاللاهوت أو علم اللاهوت يتناول مضمون الوحي بأكمله، مثل الأسرار والحقائق العقلية حيث يضعها مقدمات مسلمة، ويستخدم العقل لتفهمها، واستنباط ما يترتب عليها، ولهذا يمكن اعتبار مثل هذه الآراء فلسفة مسيحية، فهي بهذا تكون فلسفة تقول بأفكار مسيحية لم يعرفها اليونان، كما إنها تعارض أفكاراً يونانية لا تتفق مع المسيحية، وهي بهذا الشكل تكون فلسفة بالمعنى الصحيح لأنها تلتزم المنهج العقلي، ومما هو جدير بالذكر وفقاً لما سبق ذكره، أنه لا يمكن أن تكون هناك فلسفة أو اتجاه فلسفي مسيحي واحد بعينه، بل قد يكون هناك عدة اتجاهات فلسفية مختلفة فيما بينها لأنها وليدة العقل، ولكنها في نفس الوقت قد تكون متفقة مع المسيحية.

ومن أشهر محاولات التوفيق بين الفلسفة والدين، أو بين العقل والنقل، تلك التي قام بها كل من القديس أوغسطين (354-430م) والقديس توما الأكويني (1225-1274م)، ويشير أوغسطين في كتابه « مدينة الله » إلى أن الفلسفة الحقيقية

هى الفلسفة المسيحية، لأن الفلسفة هى محبة الحكمة، والحكمة هى « الكلمة »، و« الكلمة » قد تجسدت على صورة « مسيح » وهذه « الكلمة » هى الحياة، والحياة هى النور، والنور لم يأت تبعاً لهذا إلا مع المسيحية، فمحبة الحكمة هى محبة النور أو الكلمة، أى محبة المسيح والمسيحية<sup>(3)</sup>.

وعلى الرغم من فصل أوغسطين بين مملكة العقل ومملكة النقل أو الوحي، إلا أنه يشير إلى أن المسيحية هى العقل فى محاولته فهم تعاليم المسيحية، فالعقائد الأصلية الأولى قد أتت بها المسيحية، وطالبت باعتقادها، وعلى العقل من بعد أن يعرف هذه الحقائق الإيمانية أن يحول هذه الحقائق إلى حقائق يقينية معقولة، وهذا ما يعبر عنه بالقول، "أؤمن من أجل أن أتفكر"، فالإيمان أولاً ثم يأتى العقل بعد ذلك فيحل الشيء من حقيقة إيمانية إلى حقيقة برهانية، لأن العقل هو الذى يبين قيمة الحقائق الإيمانية من ناحية وجوب الاعتقاد بها، ولكن الإيمان يسبق العقل لأن الإيمان يجب أن يتقدم العقل لكى يتفكره، ويجب أن يكون الإيمان متجهاً نحو التفكر فيصبح بذلك إيماناً عقلياً.

وهذا النهج الأوغسطينى قد استمر قرونًا، وبلغ أشده عند القديس أنسلم (1033-1109م) الذى يرى أن الإيمان لا بد وأن يسبق التفكر، وكتب عن ذلك كتابه « الإيمان الذى ينشد التفكر »، أما القديس توما الأكوينى (1264م) فلقد انتهج منهجاً مغايراً للنهج الأوغسطينى فى محاولته التوفيق بين العقل والنقل أو الفلسفة والدين، فنراه يشير إلى البدء من العقل للانتهاء إلى الإيمان، فقدم العقل على الإيمان والعقل عنده وسيلة إلى الإيمان، بهدف محاول التقريب بين العقل والإيمان، ولذا غام توما الأكوينى بمحاولة تنصير فلسفة أرسطو وجعلها ملائمة لتعاليم الكنيسة والوحي المسيحى، فالكتاب المقدس هو « كلمة الله »، ويجب أن نفهم حتى نؤمن<sup>(4)</sup>.

(3) Augustine: The City of God London, New York 1931

(4) أندريه كريسوف: تيارات الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى حتى العصر الحديث، ص29، القاهرة 1971م، ترجمة نهاد رضا.

## (ب) المذاهب والنظريات الفلسفية

يمكن القول بأن الاختلاف حول قضية صلب المسيح من عدمه، من الأسباب الرئيسية لنشأة المذاهب والنظريات الفلسفية، فإن موقف الفرق المسيحية من هذه المسألة إنما يرجع إلى موقفهم من شخصية المسيح نفسه منذ الولادة حتى القيامة، وترجع اختلافات المسيحيين بين أنفسهم إلى أمرين، الأول: كيفية نزول المسيح واتصاله بأمه، والثاني: كيفية صعوده وتوحد الكلمة، واختلفوا كذلك في كيفية الاتجاه والتجسد بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح، ففرقة ترى أنه إشراق النور على الجسد، وفرقة ترى أن اللاهوت تدرع بالناسوت، وفرقة ترى أن الكلمة مازجت جسد المسيح ممزجة اللبن الماء.

ولكن الفرق المسيحية قد اتفقت على أن الخالق يتصف بأنه جوهر واحد غير متحيز، ثلاث أقانيم، الآب والابن والروح القدس، والابن هو الكلمة، والروح هي الحياة، والآب هو القديم الحى المتكلم، وهذه الأقانيم متفقة في الجوهرية، مختلفة في الأتومية، والابن ليس ابناً للآب على جهة النسل، ولكن كتولد الكلمة من العقل، ولم تنزل الروح فائضة من الآب والابن على الخلق.

ولقد اختلفت الفرق المسيحية (الملكانية والنسطورية واليعقوبية) فيما بينها من ناحية الجزء الذى ورد عليه القتل: هل القتل ورد على الجزء اللاهوتى أم ورد على الجزء الناسوتى أم على الجزئين معاً؟

أما بالنسبة إلى الملكانية أو الملكانية (الكاثوليكية) فهي ترى أن الله ثالث ثلاثة أى أن الصورة الإلهية هي آب وابن وروح القدس، وهي كلها قديمة وقد حدث الامتزاج بين هذه الأصول الثلاثة، الجوهر (الله) والابن (الناسوت أو جسد المسيح) الذى يعتبر قديماً أزلياً، والكلمة وهو العنصر الثالث، فمعنى ذلك أن السيدة مريم ولدت إلهاً أزلياً، والقتل والصلب فى نظر الملكانية إنما قد وقع على اللاهوت والناسوت أى وقع على المسيح بأكمله أى اللاهوت والناسوت.

ولقد أعلن القديس ماربطرس فى مجمع نيقية العقيدة الملكانية، وفحواها أن الله

واحد مالك كل شيء، وصانع ما يرى وما لا يرى، والابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق من جوهر أبيه، الذى بيده أيقنت العوالم، وكل شيء من أجل الخلق، ومن أجل خلاص البشر نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وولّد من مريم البتول، وصلب أيام (فيلاطوس)، ودفن ثم قام فى اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس إلى يمين أبيه، وهو مستعد للمجئ تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء\*، إذن فإن الملكانية تؤمن بعقيدة التثليث.

أما النسطورية نسبة إلى (نسطور) وهو أول من قال بالإثينية الأقنومية فى المسيح، ولقد ولد نسطور فى تركيا ببلدة مراش، ودرس فى أنطاكية، واختاره الإمبراطور أسقفاً على القسطنطينية فى سنة 428 ميلادية، وتتلخص عقيدة النسطورية فى أن العذراء ليست أم الله حقاً، وأن المسيح لا يقوم باقنوم واحد بل باقنومين، فالمسيح إنسان، ومريم إنسان جزئى، ولا يلد الإنسان الجزئى أى إنسان جزئى، ثم حدثت النعمة الإلهية التى نزلت على الرسل من قبل، فاتصل اللاهوت بهذا الإنسان الجزئى كما اتصل بسائر الأنبياء، ولكن صلته بالمسيح أكثر دواماً وأكثر استقراراً فيه، ولذلك سمى بالابن الوحيد، والاتحاد بجسد المسيح لم يتم عن طريق الامتزاج كما قالت الملكانية، ولكن كإشراق الشمس على بلور، أو كظهور النقش فى الخاتم.

وهذا الاتصال هو اتصال معنوى لأن إشراق الشمس على البلور لا يجعل البلور شمساً، ولا ظهور النقش فى الخاتم يجعل الخاتم نقشاً، وإنما هو اتصال معنوى فحسب، وما صدر عن المسيح بعد اتصاله باللاهوت إنما هو صدور عن المشيئة الإلهية، فليس ثمة وحدة فى الهوية أو فى الطبيعة وإنما ثمة وحدة فى المشيئة، ولم يبطل الاتحاد قديم ولا حدوث المحدث، ولكنهما صارا مسيحاً واحداً، ومشيئة واحدة ثم وقع الصلب، ويرى نسطور أن الصلب والقتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته لأن الإله لا يجوز أن تحل به الآلام أو العاهات أو الموت.

\* يلاحظ فى هذا النص مدى التناقض الفلسفى والمنطقى، إذ كيف يخلق الله مالا يرى؟ فمضى هذا أن الله يرى على سبيل الجزء وليس الكل، وأيضاً كيف يكون الموت للإله مع الإنسان؟

ومن الجدير بالذكر أنه عندما عُقد مجمع أفسس المسكونى الثالث عام 431م كفر الجميع بآراء نسطور وعزل عن منصبه، ونفى إلى البطراء عام 435م ثم إلى صحراء مصر وهناك مات عام 451م بعد أن وضع مؤلفه الأخير الذى من خلاله استطاع المؤرخون معرفة مذهبه، وهو بعنوان « كتاب هرقليدس الدمشقى »، ولكن نسطور لم يكن أول من قال بالأقنومين فى المسيح بل سبقه لثيودوروس المصيصى المتوفى 428 الذى نشر آراءه فى كتاب « تجسد ابن الله ».

وفى هذا الكتاب يقول لثيودوروس<sup>(5)</sup>: « عندما نميز بين الطبيعتين، نقول أن طبيعة الله (الكلمة) طبيعة كاملة كما أن أقنومه كامل أيضاً، إذ أنه لا يسعنا أن نقول عن (الهيوستاس) أنه غير أقنومى، ومعنى هذه الكلمة هو (القائم فى ذاته وبذاته)، وهذا يقابل عند أرسطو (الجوهر الأول) الذى يتصف بالحقيقة النامة والطبيعة الكاملة، فليس هو مجرد تصور فى الذهن، وليس عرضاً من الأعراض، فالطبيعة البشرية فى المسيح كاملة، وأقنومه البشرى كامل، ولكن عندما ننظر فى الاتحاد بين الطبيعتين، نقول: أنه لا يقابلنا حينئذ إلا أقنوم واحد، أما هذا الاتحاد فهو اتصال أو إسناد أو إضافة، أى سكتى الكلمة فى الإنسان يسوع، على أن هذه السكتى لا تتحقق آنذاك، بمعنى أن الكلمة حاضر بالذات والجوهر فى هذا الإنسان، أى بالإنس والرضوان ».

أما مريم فليست أم الله إلا بالمعنى الإضافى أو المجازى، كما أن الإنسان يسوع ليس ابن الله حقاً وفعلاً، وإن أطلقت عليه هذه التسمية فيمعنى أنه أصبح أهلاً لها بالنعمة فقط، والذى ولد ومات ليس ابن الله بل هو الإنسان.

والحقيقة أن موقف نسطور لم ينته إلى هذا الحد، فلقد انطلق نسطور من الموقف الأنطاكى الذى يعنى أن للمسيح طبيعتين متباينتين كاملتين تحتفظ كل منهما بخواصها، والوحدة التى بينهما هى نتيجة الاتحاد، وهذا الاتحاد الذى بين الله والإنسان فى يسوع الناصرى لا يكون فى نظر نسطور اتحاداً فى الذات أو فى الأقنوم، منعاً من تصوره على نحو ما بين النفس والجسد فى الإنسان، ولكنه أشبه

(5) نقلاً عن د. جلال شرف: تاريخ الفلسفة المسيحية ص89. الإسكندرية 1984.

شئء بالاتصال والقربى عن طريق الأناى والرؤوان، ونناج هذا الأناا باءءق فى شءص الأناا، وهو لى شءص الكلمة القءىم ولا شءص الإنسان، بل الشءص المركب من الطرفىن، أى شءص بالمعنى الأءبى المعنوى وهى صفة فقط أى وصف عرض، وىقوم ذلك كله على أصل فكرى كان واسع الأناا فى أنطاكية، وناوانا الإسكندرية فى مقاومته وهو أن كل طبعة - إذا اكاملت - كانت أقنوماً قائماً بءاا لا محالة .

والفرقة الاءاا هى اليعقوبىة (الأرءوذكسىة) وهى اءرجع إلى يعقوب البناقى على الأرجح\*، فقد اءءلف المؤرخون فى صاءب مذهب اليعقوبىة، بىن أن ىكون يعقوب البرءعانى أوساوىرس بطرىك أنطاكية أوطاىس، ولقد قاما اليعقوبىة على أساس معارضاها للمذهب النسطورى، من آىء أنها لم اءوافق على فكرة اءجزءة فى طبعة المسىء بىن اللاهوا والناسوا.

ولقد ذهب أصحاب مذهب اليعقوبىة أن المسىء وءة وءة وهو طبعة وءة وأقنوم وءة، ولهذا أطلق علىهم المؤرخون اسم « أصحاب مذهب وءة الطبعة » وىتلءص هذا المذهب فى أن المسىء ءوهر وءة، وءة وءة، طبعة وءة، أقنوم وءة، إلا أنه من ءوهرىن أءءهما ءوهر الإله القءىم، والأءر ءوهر الإنسان اءءا فصارا ءوهرأ وءة وأقنوماً وءة، ولقد اءركب هءىن الءوهرىن كما اءركب النفس والبءن، وصارا ءوهرأ وءة وهو إنسان كله وإله كله، وظهر اللاهوا بالناسوا المسىء مظهر الحق، ولا على طرىق ءلول ءزء فىه، وعلى على سبىل اءناا الكلمة الاءى هى فى ءكم الصفة بل صار هو هو<sup>(6)</sup>.

إءن فاليعقوبىة اءرى أن الطبعىءىن اللاهوىة والناسوىة قد اءءءا اءناا كاملاً فى الهوىة، فى شءص المسىء، فالمسىء إءن ءوهر وءة فىه الإنسان والإله والءلل وقع على المسىء الءوهر، أى علىه من آىء هو إنسان وإله، لأن وءة المسىء اءءم عءا، لأنه لو وقع اءلل على إءءهما لبطل الأناا، وآىن ماا

\* راءع كتاب الأستاذ اءءور/ محمد ءلال شرف، اءرىء الفلسفة المسىءىة، ص93.

(6) د. على عبء الواءة وافى: الأسفار المقدسة فى الأءىان السابقة للإسلام، ص36، القاها 1971م.

الإله وصلب بقى العالم ثلاثة أيام بلا مدبر ثم قام الإله المسيحى من جديد ليدبر الأمر.

### (ج) طبيعة الفكر الفلسفى المسيحى

لم يقف الفكر المسيحى عند الحد الذى كان عليه فى بدايته، ولا فى دائرة فهم أصحابه، شأنه فى ذلك شأن كل دين آخر، وأهم عوامل التغيير فيها عنصر الزمن وهو أقوى أسباب الخلاف فى فهمه بين الأتباع، لأنه كلما تأخر الوقت بدين من الأديان، وكلما مضى الزمن على بدء له تعددت الاتجاهات الإنسانية فى فهمه وشرحه<sup>(7)</sup>.

لقد كانت العقلية المسيحية الأولى لا تقف عند تعبير بعينه لفهم دلالات أكثر مما يحتمل التعبير مثل (كلمة الله)، فكانوا يفهمون التعبيرات بالمعنى النفسى الإيمانى دون الدخول فى تخريج دلالات أبعد من المعنى الإيمانى لها، حتى إذا تغيرت البيئة الدينية والمسيحية فى القرن الثانى الميلادى، وتفاعلت مع عناصر ثقافية تمتاز بالتحديد والدقة وهى الفلسفة اليونانية، بدأ يتغير فهم المسيحية بتغير فهم التعبيرات فى مصدرها<sup>(8)</sup>.

وبالتالى بدأ رجال الدين أنفسهم من المسيحيين يتساءلون عن مدلول التعبير ومراده، وعلاقة المدلول بالمفاهيم الأخرى حتى تكوّن من ذلك ما يعرف بالمسيحية المفلسفة، أو بالمسيحية المشروحة، وابتدأت خاصة المسيحيين تحمل فكرة « بنوة عيسى » وأنه « كلمة الله »، مثلاً على معنى يخالف فى الغالب فهم عامتهم، كما ابتدأت هى نفسها تختلف أيضاً فى هذا المعنى غير الظاهر، وأصبح تاريخ التفكير الدينى تبعاً لهذه الاختلافات يشهد صراعاً عقلياً جدلياً بين خاصة المسيحيين بعضهم ضد بعض، وابتدأ التاريخ الإنسانى العام يشهد صراعاً من نوع آخر بين مفكرى المسيحية من جهة وبين الكنيسة وجمهور المتدينين من جهة أخرى.

(7) راجع كتاب الأستاذ الدكتور/ محمد جلال شرف، تاريخ الفلسفة المسيحية، ص151.

(8) د. رشيد سالم الناضورى: المدخل فى التطور التاريخى للفكر الدينى، ص52، بيروت 1969م.

وهذه المسيحية المفلسفة شىء آخر غير ما قام به رجال مدرسة الإسكندرية أمثال يحيى النحوى وأسطفان الإسكندرى منذ أواخر القرن الرابع بعد الميلاد إلى منتصف القرن السابع، من التقريب بين المسيحية والفلسفة اليونانية، فالنوع الأول قد تأثر بالفلسفة اليونانية فى تعبيراته أو فى طريقة تأويله للنصوص الدينية، أما النوع الثانى قد قام عليها، فإنه توفيق بين الفلسفة والدين.

ولقد تطور الفكر المسيحى خلال العصور الوسطى ما بين القرن التاسع الميلادى والقرن الرابع عشر، حيث ظهرت فى هذه المرحلة نزعتان، النزعة (الأفلاطونية) والنسبى ينتسب إليها القديس أنسلم وإيبيلارد ويونافنتورا وديس سكوت، والثانية النزعة (الأرسطاليسية) والنسبى ينتمى إليها روسلان والبير الكبير وتوما الأكوينى والرشدية اللاتينية، فأصحاب النزعة الأولى يرون أن للكليات وجوداً واقعياً أسمى من الوجود الذى للأفراد، فالإنسان الكلى له وجوداً واقعياً، أما أصحاب النزعة الثانية، فعلى عكس أصحاب النزعة الأولى لا يعدون اهتماماً للوجود الكلى للإنسان بل يهتمون بوجود الأفراد أو الجزئيات، فهم يتصورون أن الكلى لا يتضمن أى وجود واقعى بل أنه لا يخرج عن كونه مجرد اسم أو صوت، ومن هذا المنطلق فقد أطلق على أصحاب النزعة الأولى الواقعيين، أما أصحاب النزعة الثانية فقد سمو بالاسمين<sup>(9)</sup>.

وينسحب هذا الخلاف بين النزعتين على مجال الإيمان، فأصحاب النزعة الأفلاطونية كانوا يؤكدون على مسألة تطابق المعقول والمنقول، بينما أتباع الأرسطاليسية يرون أنه لا بد من التمييز بين كل من المعقول والمنقول إذ أن هناك موضوعات تختص بالعقل وموضوعات أخرى تتعلق بالإيمان فحسب، ففى الوقت الذى يتجه فيه أصحاب النزعة الأفلاطونية اتجاهاً تغلب عليه صفة التصوف والروحانية المطلقة، نجد على العكس من ذلك أصحاب النزعة الأرسطاليسية يميلون إلى استخدام المنطق العقلى الواضح، كما يستندون إلى الأمور المحددة العينية، ومن ثم فإن الاتجاه العقلى يغلب عليهم بصورة أكبر مما كانت لدى الأفلاطونيين.

(9) د. حنى حنى: نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط، ص 28، القاهرة 1969م.

وعلى سبيل المثال نرى القديس أنسلم (1109م) يقدم الدليل الأنطولوجى على النهج الواقعى مستنداً على أن للكليات وجوداً فى الواقع، فهو يرى أنه بمجرد وجود الفكرة فى الذهن فلا بد أن يكون لها وجوداً فى الواقع، فإن الناس قد اتفقوا على أن هناك فكرة كائن محال أن يتصور أعظم منه وطالما أن ذلك موجود بالعقل فإنه بالضرورة لا بد أن يكون فى الواقع، بينما نجد مثلاً آخر يعبر عن النزعة الأسمية وهو القديس توما الأكوينى (1274م) وهو يمثل النزعة ذات الاتجاه العقلى فهو يعرض لبرهانه على وجود الله باعتبار أن الله ليس موضوعاً لحدس لكننا نستطيع إذا ما قبلنا العالم المحيط بنا كما هو وبدون أن نضيف إلى مقدماتنا عنه أكثر مما تحتوى عليه بالفعل، وفى هذه الحالة نستطيع أن نصل إلى نتيجتين هامتين أولهما: أن الله موجود وثانيتها إمكان التفكير فى مسألة وجود الله بطريقة عقلية.

إذن فالقديس توما بهذا النهج قد استلزم شروط البرهان المنطقى الأرسطى، حيث سنرى فيما بعد كيف قدم لنا خمسة براهين قد استمدها من الحركة وضرورة انتهائها إلى محرك أول، وأيضاً التمييز بين ممكن الوجود وواجب الوجود، وكذلك باتباع مسألة العلل والمعلولات والسير تبعاً لها، والتي تنتهى بدون شرك إلى القول بعلة واحدة أولى هى بمثابة علة العلل أى هى الله، وأيضاً باتباع درجات الكمال فى الوجود وضرورة ردها فى النهاية إلى كمال مطلق هو الله، أما البرهان الخامس فهو تأمل النظام فى العالم مما يدل على وجود غائية، وهذه الغائية يجب أن تتبع فى وجودها علة عاقلة هى الله<sup>(10)</sup>.

ولم ينته الأمر بالنسبة للفكر الفلسفى المسيحى عند هذا الحد، بذلك كان هناك شخصيات أخرى مثل بيتر أيبيلارد (1142م) الذى كان من الشخصيات الحرة الجريئة التى برعت فى فن الجدل والمناقشة والتي نادى باتباع العقل وثارى على سلطة الكنيسة ورجالها ولهذا الشخصية موقف من مشكلة الكليات بين الواقعيين والأسميين فقد رأى أن العقل الإنسانى على إدراك تام بالاشترك بين أفراد النوع الواحد. وهو الذى يقوم بتجريدها، كما أنه هو الذى يبدأ من الأشياء الفردية المحسوسة وينتهى

(10) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط، ص 88، القاهرة 1949م.

إلى الصور المجردة، وهذه الصورة إنما يحتفظ العقل بأثر من أصلها الفردي، ومن ثم يصبح الشيء الكلي ليس شيئاً عينياً وفي نفس الوقت فهو ليس مجرد اسم بل أنه مزيج بينهما، فالكليات مجرد أسماء تدل على أشياء.

ومن ذلك نجد أن الفلسفة المسيحية تتميز بخصائص تختلف عن الفلسفة اليونانية ومن أهم هذه الخصائص أولاً: أنها فلسفة تكمل الإيمان عن طريق العقل، وتكمل العقل عن طريق الإيمان، وثانياً: هي فلسفة محددة المشاكل فهي تتناول فقط ما يختص بأفكار الخلاص، ووجود الله وصفاته، وعلاقة الله بالعالم، والإنسان، وثالثاً: أن الفيلسوف المسيحي لا يمكن أن يفصل بينه وبين معتقده الديني شأنه شأن فيلسوف يهودي أو إسلامي، لأن الفلسفة ما هي إلا تعبير عن الذات الفردية، فمن الطبيعي أن يعبر مفكر مسيحي أو يهودي أو إسلامي عن فكره من خلال عقيدته، أو على مستوى فهمه الخاص سواء كان بالقبول أو بالرفض<sup>(11)</sup>.

ومن جانب آخر فإن الفلسفة المسيحية أو الفكر المسيحي يقوم على الناحية العملية، فالغاية الإنسانية هي الخلاص، وفي نظر المسيحية لا يمكن أن تتحقق إلا فيها أي في الديانة المسيحية، لأن الحكمة اليونانية لا تقدم إلا مبادئ وقواعد نظرية، ولا تقدم القدرة على تحقيق هذه المبادئ بالفعل، إذا فلقد تميز الفكر المسيحي عن الفكر اليوناني بأن الفلسفة تعبر عن مذاهب متفرقة متعارضة، وكل مذهب يناقض الآخر، ولكن الفكر المسيحي يبدو وحدة واحدة في الأصل حتى وإن اختلفت وجهات النظر بين المذاهب.

ويتجسد ذلك في رأى القديس أوغسطين (430م) حيث يرى أن الفلسفة الحقيقية هي المسيحية، فكل فلسفة من الفلسفات الأخرى لن تستطيع إلا أن تكشف عن جزء من الحقيقة فحسب، ويقول أنه إذا أتبع لنا أن نتخبط فلسفة فنحن مضطرون في نهاية الأمر مهما جمعنا من حقائق متفرقة من مذاهب فلسفية إلى الرجوع إلى معيار نستطيع عن طريقه أن نميز بين الحق والباطل في كل فلسفة وهذا المعيار هو الإيمان

(11) د. عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى، ص32، القاهرة 1962م.

المسيحي، فهناك إذن رجل ملحد يبحث بطريق العقل فحسب عن الحقيقة فلا يصل إلا إلى جزء منها، وهناك رجل آخر يؤمن أولاً وعن طريق هذا الإيمان يستطيع التمييز بين الحق والباطل في المذاهب ويستطيع أن يوفق بين هذه الحقائق ويجمعها فيتكون له إلى جانب الحقيقة الإيمانية جانب الحقيقة العقلية (12).

إذا فالإيمان أيضاً محتاج إلى التعقل، ولكن في رأى أوغسطين الإيمان سابق على التعقل، ولا يقصد من هذا القول أن يبدأ الإنسان بمقدمات إيمانية لكي ينتهي إلى نتائج عقلية عن طريق البرهان العقلي لأن هذا تحصيل حاصل إذ أن المقدمات الإيمانية لا يمكن أن تنتج مطلقاً غير نتائج إيمانية، فليس المقصود أن نبدأ من العقائد الإيمانية لكي ننتهي بالعقلية، إنما يُقصد بذلك أن الإنسان مادام مؤمناً فحسب وليس فيلسوفاً يُعدُّ وإن رأى أن من حقائق الدين ما يمكن أن يصبح حقيقة عقلية، واكتشف هذه الحقيقة بطريقة العقل فإنه يكون فيلسوفاً، وإذا أخذ هذه الحقائق الإيمانية التي توافق العقل بطريق المسيحية فإنه يكون فيلسوفاً مسيحياً.

ومثل هذا يقال عن أى فيلسوف ينتسب إلى دين ما، فالفيلسوف الإسلامى قد يجد في الإسلام ما يوافق العقل، فيحاول أن يثبت ذلك عن طريق العقل، وكذلك أى دين آخر، يحاول فيه الفيلسوف المنتمى إليه أو يوظف العقل لخدمة الإيمان، فهناك حقائق لا يستطيع العقل أن يثبتها فيؤمن بها دون أن يتعقلها، وهناك حقائق عقلية يتعقلها العقل بجانب الإيمان بها.

#### ( د ) أدوار الفلسفة المسيحية

من البديهي أن تاريخ أى اتجاه من اتجاهات الفلسفة يمر بأدوار عدة ابتداء من النشأة ثم الظهور والتطور أو الاكتمال ثم أخيراً الاضمحلال، ولقد مرت الفلسفة المسيحية بعدة أدوار خلال العصر الوسيط.

والدور الأول يتمثل من أواخر القرن الرابع إلى القرن الثامن الميلادى، ويضم

(12) أتين جيلون: روح الفلسفة في العصر الوسيط، ص65، القاهرة 1990م، ترجمة د. إمام عبد الفتاح.

عددًا من الشخصيات أهمهم القديس أوغسطين (354-430م) وديونيسيوس تلميذ بولس الرسول ويولس أنيسيوس (470-525م) وييد (672-735م) .

أما القديس أوغسطين فهو يعد المفكر الأول في العصر الوسيط حيث كان يعبر عن تجربة خاصة وهي تجربة تحوله إلى المسيحية التي هي في نظره الفلسفة الحققة حيث نظر أوغسطين للحقيقة باعتبارها وحدة إلهية والوصول إليها سعادة ويعرف أوغسطين السعادة بأنها الاستمتاع بالحقيقة لأن الإنسان في رأيه لا بد وأن يكون هدفه هو طلب الحقيقة والكشف عنها والوصول إلى أسرارها لمعرفة حقائقها .

وفي رأى أوغسطين أن طلب الحقيقة هي الحكمة والطريقة التي يتمكن بها الإنسان للوصول إلى الحكمة إنما تأتي عن طريق العلم والمعرفة وبالتالي فإن تأثر أوغسطين بالأفلاطونية واضح في فلسفته الدينية<sup>(13)</sup> .

أما الشخصية الثانية فهي شخصية ديونيسيوس وهو تلميذ بولس الرسول ومن أهم مؤلفاته : « الأسماء الإلهية ، المراتب السماوية أو الملائكة ، اللاهوت الصوفى ، المراتب الكنسية » ، وهناك شخصية ثالثة لعبت دوراً فكرياً فى ذلك العصر وهي شخصية بولس أنيسيوس الذى ترجم معظم مؤلفات أفلاطون وأرسطو وكذلك كتاب (فورفوربوس) ومن أهم ما تحدث عنه بولس هو مشكلة الكليات، هل الأجناس والأنواع موجودة فى الواقع أم أن وجودها فى الذهن فقط؟

أما الشخصية الرابعة وهي شخصية بيد وهو راهب روماني قدم إلى إنجلترا فى القرن السادس بعد الغزوات الأنجلوسكسونية مع مجموعة من رهبان روما وأخذوا ينشرون المسيحية وينشئون المدارس فازدهرت الثقافة فى إنجلترا فى ذلك العصر .

والدور الثانى من أدوار الفلسفة المسيحية فهو أيام حكم شارلمان، وهذه المرحلة تميزت بظهور نهضة فكرية، حيث ازدهر التعليم والثقافة فى هذه المرحلة، إذ ساعد شارلمان فى إنشاء الكثير من المدارس مما ساعد على انتشار التعليم العالى، وتشجيع العلماء، مما أدى إلى بزوغ حركة علمية فى خلال القرن التاسع الميلادى كان على

(13) د. أحمد محمود صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص92، الإسكندرية 1984 .

رأسها جون سكوت أريجين (877م) الذي اهتم بالترات اليونانى وأيضاً كتابات آباء الكنيسة وشرحها.

وهناك مرحلة أعقبت هذه المرحلة السابقة وهى فى القرن العاشر، تتسم أيضاً بأنها مرحلة ازدهار نبع فيها المناطق والعلماء واللاهوتيين كان على رأسهم شخصية القديس سانت أنسلم (1109م) الذى يعد أول مفكر نسقى التفكير، ولقد وضع أنسلم مؤلفاته كإجابة لطلب بعض رهبانه فى أن يقدم لهم تأملاً فى وجود الله وطبيعته يستند إلى العقل، ويستغنى فيه عن الرجوع إلى الكتاب المقدس، وكان كتاباه «مناجاة النفس»، «التمهيد» بمثابة الرد الحاسم على هذه المشكلة، وفى الكتاب الأول يبدأ أنسلم بما يقع فى الخبرة من تفاوت فى درجات القيم وفى درجات الخير والوجود فيما يحيط بنا من أشياء<sup>(14)</sup>.

وبالتالى فمن هذا ينتقل بالبرهان إلى ضرورة وجود معيار يشير إلى وجود خير مطلق، ووجود كائن مطلق، يكون وجود ما هو نسبي مرهوناً بمشاركته فيه وهذا المطلق هو ما يسميه بالله. وبرهان أنسلم على نهج أفلاطونى قد استخدمه أوغسطين قبله، أما الكتاب الثانى وهو «التمهيد» فإنه يقدم لنا البرهان الوجودى أو الأنطولوجى الذى سيتضح عند الحديث عن القديس أنسلم. ولقد أثار هذا البرهان الجدل الكثير، ولم يزل الفلاسفة بين التسليم بصحته وبين إنكارهم له.

وما يهمنا هنا هو أهمية الدور الذى لعبه القديس أنسلم فى هذا الدور المزدهر من أدوار الفلسفة فى العصر الوسيط، ومما هو جدير بالذكر أن فلاسفة هذا الدور قد تأثروا إلى حد كبير بفلاسفة الدور الأول، فمثلاً نجد أن أفكار المناطق فى هذه المرحلة كانت لا تخرج عن أفكار منقولة عن ترجمات «بويس» المنطقية والتي كانت لها أبعاد الأثر فى إثارة مسألة المعرفة، وذلك بإثارتها لمسألة الكليات الخمسة وعلاقتها بالواقع، كما أدت من جهة أخرى إلى محاولة إدخال المنطق فى مسائل اللاهوت، أى تطبيق قواعده فى معالجة المسائل اللاهوتية وبالتالي العلاقة بين العقل والنقل.

(14) د. عبد فراج: الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى، ص45، القاهرة 1955.

وفي القرن الثاني عشر وهو نهاية هذه المرحلة استقرت الحياة الاجتماعية وانتعشت التجارة والصناعة وتقدمت الفنون ونشطت الحركة الأدبية بفتح عدد كبير من المدارس، وأدت هذه النهضة الشاملة في هذه المرحلة إلى ظهور عدد كبير من اللاهوتيين والجدليين الذين قدموا أدباً رائعاً بفضل تأثرهم بالآداب اليونانية واللاتينية وتعد ظاهرة الترجمة ونقل الكتب العربية إلى اللاتينية من أهم مظاهر النهضة الفكرية في ذلك الوقت.

والدور الثالث كان له أهمية من جانب التطور العقلي، حيث انتعشت الجامعات، وقامت بتدريس كتب أرسطو المترجمة من العربية، وكذلك مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا، وأيضاً الغزالي وابن رشد، وكرس الأساتذة في الجامعات جهودهم على الرجوع إلى الترجمات اليونانية لمؤلفات أرسطو حتى يتعرفوا على أصل الفلسفة، ولتبيان أقوال أرسطو من غيره بين الشراح اليونان والعرب<sup>(15)</sup>، حيث أثار طرح الفلسفة الإسلامية مشاكل كثيرة حول مسألة الصلة بين الفلسفة اليونانية وبين الدين الإسلامي، والمشكلة الأساسية التي عاناها الفكر المسيحي هي مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين ثم محاولة التوثيق بينهما والتي سبق أن تعثرت فيها الفلسفة الإسلامية وبلغت ذروتها عند ابن رشد.

أما الدور الرابع فلقد تميز بالنفور من الماضي أي المعاني المجردة واتجه إلى الواقع، فقد اتسم العصر أو الدور السابق بالإسمية أو اللفظية، وأدى هذا النقد إلى الشك في العقل والمعقولات مما كان له الأثر في المناداة بوجوب الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، فرأى مفكروا هذا الدور أن المعرفة الحسية الجزئية أوضح من المعرفة العقلية المجردة، وأكثر يقيناً، فنادوا باتباعها، واتجهوا ناحية الطبيعة يتأملونها ويحاولون دراستها والاستفادة منها، فوضعوا بذلك أصول العلم والبحث المستقل عن الفكر الفلسفي فحددوا علم الفلك واهتدوا إلى قوانين جديدة للحركة.

(15) د. جوزيف نسيم: نشأة الجامعات في العصور الوسطى، ص42، بيروت 1981.

ولاشك أن سمات هذا العصر من روح نهضة وازدهار، ويمكن اعتبار ذلك بداية للعصر الحديث، فالفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط إنما هي تمثل الصراع بين الفلسفة والدين من جانب وتحرر العقل من سيطرة اللاهوت أو الكنيسة من جانب آخر.